التفسير بالرأي

ضوابطه وأقسامه

تأليف

فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله لهُ ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء، وجعله هدىً ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، الذي أُرسل مبلغًا ومفسرًا لكتاب ربه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإن كتاب الله تعالى هو النور المبين، والصراط المستقيم، الذي لا تنقضي عجائبه ولا تشبع منه العلماء. وقد تولى الله حفظه وبيانه، فحفظه في الصدور والسطور، وبيَّنه عبر وسيلتين رئيسيتين: التفسير بالمأثور، وهو ما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، والتفسير بالرأي، وهو ما يستند إلى اجتهاد العلماء وفهمهم اللغوي والعقلي.

ولم يكن "التفسير بالرأي" يومًا موضع نزاع في جوهره، فقد حث القرآن على التدبر وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد، ولكن الخلاف دار دائمًا حول ضوابطه وشروطه، فمتى يكون هذا الرأي مقبولاً مرضيًّا، ومتى يكون مردودًا مذمومًا؟

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب: "التفسير بالرأي: ضوابطه وأقسامه".

يهدف هذا الكتاب إلى وضع القارئ الكريم على عتبة هذا العلم الشائق، بتقديم تصور واضح ومحدد عن:

- حقيقة التفسير بالرأي: تعريفه، وحكمه، وأدلة مشروعيته من الكتاب والسنة.

- أقسامه وتفصيلاته: حيث نفرق بين التفسير بالرأي المحمود (الاجتهاد المقيد بالأصول) والتفسير بالرأي المذموم (الاجتهاد بالهوى بغير علم).

- ضوابطه وشروطه: وهي الجدار الذي يحمي العالم من الزلل، كالالتزام بلغة العرب، ومراعاة السياق، وعدم مخالفة النصوص القطعية، وفهم مقاصد الشريعة.

- نماذج تطبيقية: نستعرض فيها أمثلة رائعة للتفسير الرأي المحمود من خلال كبار المفسرين، كما نناقش أمثلة للتفسير المذموم لنتعلم من أخطاء السابقين.

إن هذا الكتاب محاولة لتسليط الضوء على منهجية علمية رصينة، تحفظ لعلم التفسير هيبته، وتفتح للعقل المجتهد باب الاجتهاد في فهم كلام الله تعالى ضمن أطرٍ تضمن سلامة المسار وصحة النتائج.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لبنة في صرح خدمة كتابه العزيز. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه

فضيلة الشيخ: حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين

أهمية الموضوع

يأتي بيان أهمية موضوع التفسير بالرأي من كونه يمثل:

الجسر بين النص والواقع: فالتفسير بالرأي ليس مجرد ترف فكري، بل هو أداة حيوية لربط دلالات النصوص القرآنية الثابتة بمتغيرات الحياة وحاجات العصر.

توضيح المنهج الوسطي: حيث يبرز هذا الموضوع أن الإسلام لا يصادر العقل ولا يتركه دون ضوابط، بل يجعله خادماً للوحي في إطار منضبط.

التمييز بين العلم والهوى: فبيان ضوابط التفسير بالرأي يُظهر الفرق الشاسع بين الاجتهاد العلمي القائم على الأصول، والرأي المجرد الذي يعبث بدلالات النصوص.

استمرارية حيوية النص: فالتفسير بالرأي يضمن بقاء القرآن صالحاً لكل زمان ومكان، قادراً على معالجة المستجدات من خلال استنباط الأحكام والفوائد.

الرد على المذاهب المنحرفة: حيث يُعد فهم التفسير بالرأي وضوابطه سلاحاً مهماً في مواجهة التأويلات الباطنية والتفاسير المتطرفة التي تخرج عن الأصول المعتبرة.

إثراء التراث التفسيري: فقد أسهم التفسير بالرأي في إغناء المكتبة الإسلامية بمناهج متعددة في فهم القرآن، كالتفسير اللغوي، والبلاغي، والفقهي، والعلمي.

وبهذا يتجلى أن التفسير بالرأي ليس مجرد رأي شخصي، بل هو منهجية علمية تجعل العقل أداة لفهم الوحي، والرأي وسيلة للاستنباط والتفقه في دين الله.

تعريفات أساسية: التفسير، التأويل، الرأي، التفسير بالمأثور، التفسير بالرأي.

(١) التفسير لغةً واصطلاحًا:

- لغةً: مأخوذ من الفَسْر، وهو الكشف والإيضاح والإبانة. يقال: فَسَرَ الشيءَ أي كشفه وأظهره.

- اصطلاحًا: "علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك." باختصار، هو كشف معاني القرآن الكريم وبيان المراد منها.

(٢) التأويل لغةً واصطلاحًا:

- لغةً: مأخوذ من (أَوَلَ)، أي الرجوع والعودة. والتأويل: مصدر (أَوّلَ).

- اصطلاحًا: له استعمالان مشهوران:

  - الاستعمال الأول: بمعنى التفسير، فيكون مرادفًا له. وهذا شائع في كلام السلف.

  - الاستعمال الثاني (الأكثر دقة في العلوم الشرعية): "هو صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى محتمل مرجوح لدليل يقترن به." أي تعيين المعنى المراد من اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى. (مثل تفسير "اليد" في قوله تعالى "يد الله فوق أيديهم" بالقوة والنصرة، فهذا تأويل لأن الظاهر هو اليد الحقيقية، ولكن وُجِهَ إلى معنى مجازي بدليل عقلي ونقلي).

(٣) الرأي لغةً واصطلاحًا:

- لغةً: ما يراه الإنسان ويعتقده في أمرٍ ما. وهو التقدير والظن.

- اصطلاحًا: "الاجتهاد في استنباط المعاني واستخلاص الأحكام بناء على الفهم الشخصي، مستندًا إلى أصول وقواعد معتبرة." وهو ليس مجرد "هوى" بل عملية عقلية منهجية.

(٤) التفسير بالمأثور (أو التفسير بالمنقول):

- هو: "تفسير القرآن الكريم اعتمادًا على ما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو التابعين من أقوال في بيان معاني القرآن."

- مصادره: القرآن نفسه (تفسير القرآن بالقرآن)، السنة النبوية، أقوال الصحابة (لأنهم شاهدوا التنزيل وعرفوا ظروفه)، أقوال التابعين (تلاميذ الصحابة).

- هدفه: بيان المعنى كما فُهم من قِبَلِ الذين تلقوا الوحي وعاشروه.

(٥) التفسير بالرأي (أو التفسير بالدراية):

- هو: "تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد اعتمادًا على اللغة العربية، وأصول الفقه، ومقاصد الشريعة، والعلوم المساعدة، في ضوء فهم المفسر واستنباطه، مع الالتزام بالضوابط الشرعية."

- أقسامه :

- التفسير بالرأي المحمود (الاجتهادي): وهو التفسير المستند إلى أدلة صحيحة وأصول راسخة، وهو مطلوب ومشروع.

- التفسير بالرأي المذموم: وهو التفسير بالهوى بغير علم، أو تفسير القرآن برأي سابق دون استناد إلى دليل معتبر، وهو محرم.

هذه التعريفات تمثل اللبنات الأساسية لفهم علم التفسير ومناهجه، وتمييز المنهج السليم من المنهج المنحرف في فهم كلام الله تعالى.

الفصل الأول: مفهوم التفسير بالرأي وأهميته

المبحث الأول: تعريف الرأي لغة واصطلاحاً

أولاً: الرأي في اللغة:

مصدر "رأى" يَرَى، وهو في الأصل يدل على التفكر والتدبر وإعمال العقل في شيء للوصول إلى حكم عليه. يقال: "رأيت في الأمر رأياً" أي فكرت فيه واختبرته. وقد جاء في القرآن الكريم: قال تعالى {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} (يوسف:٣٦)، أي أبصر في منامي وأدرك بحاسة البصر والبصيرة.

ثانياً: الرأي في الاصطلاح:

هنا يتبين الفارق الجوهري الذي يجب استيعابه، حيث ينقسم الرأي في الاستعمال الاصطلاحي إلى قسمين:

(١) الرأي الشخصي المجرد (المذموم):

وهو الاعتقاد أو الحكم الذي يتشكل بناء على الهوى، أو العادة، أو الخبرة المحدودة، دون استناد إلى أدلة شرعية أو قواعد علمية رصينة. وهذا النوع من الرأي يكون خطيراً عندما يُطبق على تفسير القرآن، لأنه يحوّل النص المقدس إلى مرآة تعكس أهواء الشخص وأفكاره المسبقة. من سماته:

- عدم الاعتماد على أصول التفسير المعتبرة.

- التحيز لفكرة مسبقة.
- عدم التقيد بضوابط الفهم الصحيح.

(٢) الاجتهاد القائم على أسس (المحمود):

وهو بذل العالم الجهد واستفراغ الوسع في استنباط المعاني من النصوص الشرعية، مستعيناً بأدوات العلم الشرعي واللغوي، وفي إطار الضوابط المعروفة. وهذا هو المقصود بمصطلح "الرأي" في سياق "التفسير بالرأي المحمود". من أسسه:

- الاستناد إلى اللغة العربية وعلومها: كالنحو، والصرف، والبلاغة، وعلم الدلالة.
- الالتزام بأصول العقيدة الصحيحة: وعدم مخالفة ما ثبت من أصول الإيمان.
- فهم السياق القرآني: (سياق الآيات، والسورة، وأسباب النزول).
- الرجوع إلى المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية.
- بناء الفهم على التفسير بالمأثور كأصل أولي.

الخلاصة والتفريق:

الرأي الشخصي المجرد (الهوى)	الاجتهاد القائم على أسس (العلم)
قائم على الهوى والذوق الشخصي.	قائم على الأدلة والنصوص.
يعتمد على الخبرة الشخصية فقط.	يعتمد على العلوم الشرعية واللغوية.
يخضع النص لفكرة مسبقة.	يستنبط الفكرة من النص.
يؤدي إلى التفسير المذموم.	يؤدي إلى التفسير المحمود.

وهذا التفريق هو حجر الزاوية في فهم موضوع التفسير بـالرأي، فلـيس المرفـوض هـو إعمـال العقل، بل المرفوض هو إطلاق العقل من غير قيود العلم والضوابط الشرعية.

الرأي في التفسير: هو الاجتهاد العقلي الذي يبذله المفسر لاستنباط المعنى وتوضيح مـراد الله بعد استيفاء أدوات التفسير الأساسية (اللغة، المأثور).

المبحث الثاني: الرأي في التفسير – التعريف والمرتكزات

تعريف الرأي في التفسير:

هو الاجتهاد العقلي المنهجي الذي يبذله المفسر المؤهل لاستنباط المعنى من الـنص القرآنـي، وتوضيح مراد الله تعالى، وذلك بعد استيفاء أدوات التفسير الأساسية من الإلمام باللغة العربية وعلومها، والوقوف على ما ورد في التفسير بالمأثور.

المرتكزات الأساسية لهذا التعريف:

١. الاجتهاد العقلي المنهجي:

- يشير إلى أن التفسير بالرأي ليس مجرد تخمين أو انطباع شخصـي، بـل هـو عمليـة عقلية منظمة تقوم على التحليل والاستدلال والموازنة بين الاحتمالات.

٢. المفسر المؤهل:

- يؤكد على شرطية الأهلية العلمية، فلا يجوز لكـل أحـد الخـوض في تفسـير القـرآن بالرأي. فالمفسر بحاجة إلى آليات علمية تؤهله لهذه المهمة.

٣. استنباط المعنى وتوضيح مراد الله:

- يحدد الهدف الجوهري من التفسير بالرأي، وهو الكشف عن مقاصد القرآن وإيضاح حكمته، وليس إثبات رأي مسبق للمفسر.

٤. بعد استيفاء الأدوات الأساسية:

- يضع الشرط الضابط الذي يمنع الانزياح والانحراف، ويضمن سلامة المسار التفسيري. وأهم هذه الأدوات:

أدوات اللغة العربية: من نحو، وصرف، وبلاغة، وعلم دلالة الألفاظ.

التفسير بالمأثور: كأصل أولي يرجع إليه، وضابط لمسار الاجتهاد.

وبهذا يتجلى أن التفسير بالرأي هو تكميل لدور التفسير بالمأثور، وليس تصادماً معه. فالمأثور يقدم الأساس والحدود، والرأي المحمود يقدم الفهم والتطوير والربط مع واقع الناس وحاجات العصر.

مشروعية الرأي: الاستدلال بالنصوص التي تحث على التدبر والاجتهاد (مثل: قال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ).

المبحث الثالث: مشروعية التفسير بالرأي

إن مشروعية التفسير بالرأي ليست مسألة اجتهادية فحسب، بل هي مستمدة من نصوص الوحي التي حثت على التدبر والتفكر وأعمال العقل في كتاب الله تعالى. ويمكن الاستدلال على ذلك بعدة أدلة:

أولاً: من الكتاب العزيز:

١. النصوص الآمرة بالتدبر والتفكر:

- قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩].

وجه الدلالة: الأمر بتدبر الآيات يتطلب بذل الجهد العقلي لفهم معانيها واستنباط حكمها، وهو جوهر التفسير بالرأي المحمود.

- قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤].

وجه الدلالة: جعل الله عدم التدبر دليلاً على انغلاق القلوب، مما يفيد أن التدبر – الذي هو تفعيل للعقل – واجب شرعي.

- قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠].

وجه الدلالة: مدح "أولي الألباب" وهم أصحاب العقول التي تتفكر وتستنبط، وهذا يشمل التفكر في آيات القرآن التشريعية.

٢. ذم التقليد والإعراض عن التعقل:

o ذم الله تعالى أولئك الذين يتبعون الظن ولا يستخدمون عقولهم، مما يفيد أن إعمال العقل في فهم النصوص هو الأصل.

ثانياً: من السنة النبوية:

١. أقوال النبي صلى الله عليه وسلم:

o قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن: "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله، قال: "فإن لم تجد؟" قال: بسنة رسول الله، قال: "فإن لم تجد؟" قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: "الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله". (رواه أبو داود والترمذي).

وجه الدلالة: الحديث أصل عظيم في مشروعية الاجتهاد بالرأي عند عدم وجود نص صريح، والقرآن هو أول مورد للاجتهاد.

٢. فعله صلى الله عليه وسلم:

o كان صلى الله عليه وسلم يشرح لأصحابه معاني القرآن، ويفسر لهم مجمله، ويبين لهم أحكامه، وفي هذا تربية للأمة على أن فهم القرآن لا يتم بمعزل عن بذل الجهد العقلي ضمن الضوابط.

ثالثاً: من فعل الصحابة والتابعين:

- اشتهر كثير من الصحابة بالاجتهاد في تفسير القرآن، كعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم. وكان ابن عباس – حبر الأمة – يقول: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله".

وجه الدلالة: في تقسيمه هذا إشارة واضحة إلى مجال الاجتهاد العقلي ("تفسير يعلمه العلماء").

لا غنى للأمة عن التفسير بالرأي المحمود، فهو الوسيلة لفهم القرآن في كل عصر، واستنباط حلول لمشكلاته المستجدة. وهو ليس بديلاً عن التفسير بالمأثور، بل هو بناء عليه وتكميل له، يشترط فيه أن يكون جهداً علمياً مضبوطاً بالأصول والضوابط، بعيداً عن الهوى والظن غير المبني على علم.

المبحث الرابع: أسباب اللجوء إلى التفسير بالرأي

إن اللجوء إلى التفسير بالرأي ليس ترفاً فكرياً، بل هو ضرورة علمية وواقعية فرضتها طبيعة النص القرآني وحاجات الأمة. ويمكن إجمال أهم هذه الأسباب فيما يلي:

١. نقص المأثور في بعض الآيات:

- الوصف: هناك العديد من الآيات القرآنية التي لم يرد في تفسيرها أثر صريح عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة، خاصة في الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي، وبعض القصص، والأحكام العامة التي تحتاج إلى تفصيل.
- المثال: قوله تعالى: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠]. فسرها كثير من المفسرين بالرأي بناء على معنى "دحا" في اللغة وما استجد من معارف علمية عن شكل الأرض.

٢. اختلاف المأثور أحياناً:

- الوصف: قد ترد الآية الواحدة بأكثر من تفسير مأثور، ويصعب الجمع بينها أو ترجيح أحدها دون إعمال للرأي والاجتهاد القائم على قواعد الترجيح.

- المثال: تفسير "الصراط المستقيم" في سورة الفاتحة، حيث وردت آثار متعددة في تفسيره، فاضطر المفسرون إلى ترجيح أحدها أو الجمع بينها باستخدام آليات الاجتهاد العقلي.

٣. الحاجة إلى ربط النص بواقع الحياة وقضايا العصر:

- الوصف: القرآن كتاب هداية لكل زمان ومكان، ولا يمكن تطبيق هذه الخصوصية إلا من خلال تفسير يراعي مستجدات العصر ويستنبط منها حلولاً للمشكلات المعاصرة.

- المثال: استنباط الأحكام الفقهية لقضايا مستجدة مثل التلقيح الاصطناعي، وعقود التأمين، وعلاج الأمراض بالخلايا الجذعية من خلال فهم مقاصد النصوص العامة.

٤. تطور العلوم والمعارف الإنسانية:

- الوصف: ظهور علوم جديدة كاللغويات، وعلم النفس، والاجتماع، وعلوم الطبيعة، يتطلب إعادة نظر في فهم بعض الآيات بما لا يخالف الأصول الشرعية.

- المثال: التفسير العلمي للقرآن الذي يحاول ربط الآيات الكونية بما اكتشفه العلم الحديث، مع التحفظ بالضوابط الشرعية لذلك.

٥. دفع الشبهات والرد على المغالطات:

- الوصف: ظهور شبهات جديدة حول القرآن تحتاج إلى ردود عقلية محكمة، وهو ما يتطلب فهماً عميقاً للنص وقدرة على الاستنباط والاحتجاج.

- المثال: الرد على من يتعلق ببعض الآيات التي يفهمها فهماً ظاهرياً للطعن في القرآن، مما يستلزم بيان المعنى الصحيح بالأدلة العقلية واللغوية.

٦. تنمية القدرة الاجتهادية للأمة:

- الوصف: التفسير بالرأي يعد مدرسة لتنمية العقل المسلم وتدريبه على الفهم الاستنباطي، مما يحفظ للأمة حيويتها الفكرية وقدرتها على التجديد.

هذه الأسباب تجعل من التفسير بالرأي ضرورة علمية لا غنى عنها، لكنها تبقى مقيدة بالضوابط الشرعية التي تضمن سلامة المسار وتبعد التفسير عن متاهات الهوى والافتراضات غير العلمية. فهو جهد إنساني يحتمل الصواب والخطأ، وهو قابل للنقاش والمراجعة في إطار الأدب العلمي والإنصاف.

الفصل الثاني: نشأة التفسير بالرأي وتطوره

المبحث الأول: مرحلة البدايات – دور الصحابة والتابعين في الاجتهاد العقلي

تمثل مرحلة الصحابة والتابعين اللبنة الأساسية والجذر الأصيل لنشأة التفسير بالرأي، حيث ظهر الاجتهاد العقلي بشكل طبيعي ومكمل للتفسير بالمأثور.

أولاً: دور الصحابة في وضع الأساس (العصر النبوي والراشدي):

١. التلقي المباشر من النبي صلى الله عليه وسلم: كان الصحابة يستفسرون من النبي مباشرة عما أشكل عليهم، فكان تفسيرهم قائماً على الوحي أولاً.

٢. الاجتهاد عند عدم وجود نص صريح: عندما لا يجد الصحابي أثراً مفسراً للآية، كان يلجأ إلى فهمه القائم على:

- معرفة اللغة العربية بفطرتها السليمة.
- فهم سياق النزول وملابساته.

- ربط الآيات ببعضها (التفسير القرآن بالقرآن).

- استحضار المقاصد العامة للشريعة.

٣. نماذج من اجتهادات الصحابة:

- أبو بكر الصديق رضي الله عنه: عندما سئل عن "الكَلَأ" في قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} (عبس: ٣١)، قال: "أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟". وهذا يوضح حرصهم على التثبت، لكنه في الوقت نفسه لم يمتنع عن الاجتهاد عندما كان لديه أدلة.

- عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اشتهر بآرائه الاجتهادية، مثل فهمه لـ "اللامة" في قوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ} (النساء: ١٠١)، حيث رآها كل سفر يكون فيه خوف، فخالفه بعض الصحابة، مما يدل على وجود مساحة للرأي والاجتهاد.

- علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان من أعمق الصحابة فهماً واستنباطاً، وله تفسيرات كثيرة قائمة على الفقه اللغوي والاستنباط العقلي.

- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان يقول: "والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت".

- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (حبر الأمة): هو المثال الأبرز على الجمع بين المأثور والرأي. كان يسأل الصحابة عن التفسير، ثم يجتهد هو بنفسه مستنداً إلى فصاحته في اللغة وسعة علمه. وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".

ثانياً: دور التابعين وتوسع الاجتهاد:

١. اتساع رقعة الدولة الإسلامية: أدى دخول أعاجم جدد في الإسلام وانتشاره في بلاد غير عربية إلى ظهور أسئلة جديدة واستفسارات تحتاج إلى اجتهاد.

٢. ظهور مدارس التفسير: نشأت مدارس علمية في مختلف الأمصار (مكة، المدينة، الكوفة، البصرة)، لكل منها منهجها في التفسير يجمع بين المأثور والرأي:

- مدرسة مكة: ويمثلها ابن عباس وتلاميذه (مجاهد، عكرمة، طاووس). واشتهرت بالاعتماد على المأثور مع الاجتهاد في فهم اللغة.
- مدرسة المدينة: ويمثلها أبي بن كعب وتلاميذه (زيد بن أسلم، محمد بن كعب القرظي). وتميزت بالاهتمام بالأحكام الفقهية.
- مدرسة العراق (الكوفة والبصرة): ويمثلها عبد الله بن مسعود وتلاميذه (علقمة، مسروق، الحسن البصري). واشتهرت بقوة الاجتهاد والاستنباط والاهتمام بالدقائق اللغوية.

٣. ضبط الاجتهاد بضوابط: في هذه المرحلة، بدأت تظهر ملامح الضوابط التي تحكم الاجتهاد بالرأي، مثل التحذير من التفسير بغير علم.

لم يكن التفسير بالرأي بدعة أو أمراً مستحدثاً، بل كان موجوداً منذ العصر الأول للإسلام. وكان اجتهاد الصحابة والتابعين اجتهاداً مضبوطاً ينطلق من العلم باللغة والسياق والمقاصد، ويقف حيث يقف الدليل. وقد وضعوا الأساس المتين الذي سار عليه من بعدهم، فجمعوا بين النقل الصحيح والعقل الرشيد.

المبحث الثاني: مرحلة التدوين – ظهور التفسير بالرأي كمنهج مستقل

تمثل مرحلة التدوين نقلة نوعية في تاريخ علم التفسير، حيث انتقل من طور الشفاهية واجتهادات الأفراد المتناثرة إلى طور التأليف المنهجي المنظم. وفي هذه المرحلة بدأ التفسير بالرأي يظهر كمنهج مستقل وواضح المعالم.

أولاً: ملامح الانتقال من الشفاهية إلى التدوين:

١. جمع المادة العلمية: في القرن الثاني الهجري وما بعده، بدأ العلماء بجمع ما تناثر من أقوال الصحابة والتابعين في التفسير، وكان هذا النواة الأولى لكتب التفسير.

٢. التصنيف حسب المنهج: بدأت تظهر مؤلفات متخصصة تجمع بين المأثور والرأي، ثم تطور الأمر لظهور مؤلفات تعتمد بشكل أكبر على الاجتهاد العقلي واللغوي.

ثانياً: أبرز ملامح التفسير بالرأي كمنهج مستقل في مرحلة التدوين:

١. الاستناد إلى اللغة العربية كأساس: أصبحت علوم اللغة العربية (نحو، صرف، بلاغة، لغة) هي الأداة الأساسية لفهم النص القرآني.

٢. الاعتماد على القواعد الأصولية: استخدم المفسرون قواعد أصول الفقه في استنباط الأحكام من الآيات.

٣. بروز الاختلافات المنهجية: ظهرت اتجاهات واضحة في التفسير تعكس تخصصات المفسرين وخلفياتهم العلمية.

ثالثاً: نماذج للمفسرين والكتب التي مثلت هذا المنهج:

١. الإمام أبو جعفر الطحاوي (ت ٣٢١ هـ) في كتابه "أحكام القرآن".

٢. الإمام أبو بكر الرازي (ت ٣٧٠ هـ) في كتابه "أحكام القرآن".

٣. الإمام أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) في كتابه "أحكام القرآن".

رابعاً: خصائص التفسير بالرأي في هذه المرحلة:

- المنهجية: وجود قواعد وأصول واضحة للتفسير.
- التخصص: ظهور تفسيرات تركز على جوانب معينة (لغوية، فقهية، بلاغية).
- الاستقلال: أصبح التفسير بالرأي علماً قائماً بذاته له أصوله وقواعده.
- التنوع: ظهور اتجاهات مختلفة في التفسير تعكس المدارس الفكرية والعقدية.

في مرحلة التدوين، انتقل التفسير بالرأي من كونه اجتهادات فردية إلى علم منهجي منظم، له أصوله وقواعده وأعلامه. وقد أسهم هذا الانتقال في إثراء المكتبة الإسلامية وتنوع مناهج

فهم القرآن الكريم، مع الحفاظ على الضوابط الشرعية التي تضمن سلامة التفسير من الانحراف.

المبحث الثالث: المدارس الرائدة في تطوير مناهج التفسير بالرأي

مع اكتمال نضج العلوم الإسلامية وتبلور مناهجها، برزت مدارس متخصصة أسهمت بشكل كبير في تطوير آليات التفسير بالرأي وإغنائه. وقد مثّل كل تخصص منها زاوية نظر مختلفة انعكست على فهم النص القرآني، مما وسع من آفاق التفسير وأغناه.

أولاً: دور اللغويين (مدرسة التحليل اللغوي)

ساهم اللغويون في وضع الأسس العلمية الدقيقة لفهم النص القرآني من خلال:

- الركيزة: الاعتماد على قواعد النحو والصرف وعلم الدلالة والبلاغة.
- الهدف: ضمان الفهم الدقيق للآيات بناء على دلالات الألفاظ وتراكيبها في اللغة العربية.

- أبرز المساهمات:
  - تفسير الغريب والمشكل من ألفاظ القرآن.
  - تحليل التراكيب النحوية وأثرها في المعنى.
  - الكشف عن الأسرار البلاغية والأسلوبية.
- نماذج مؤثرة:
  - أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ) في كتابه "مجاز القرآن".
  - الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي أسس نظرية النظم وأثرها في تفسير القرآن في كتابه "دلائل الإعجاز".

ثانياً: دور المتكلمين (مدرسة الاستدلال العقلي)

أسهم المتكلمون (علماء الكلام والعقيدة) في تطوير منهج التفسير بالرأي من خلال:

- الركيزة: الاعتماد على الأدلة العقلية والمنطق في فهم الآيات المتعلقة بالعقيدة ورد الشبهات.
- الهدف: الدفاع عن العقيدة الإسلامية وبيان انسجام النص القرآني مع مقتضيات العقل.
- أبرز المساهمات:
  - تفسير آيات الصفات بما يتنزه مع التنزيه الإلهي.
  - الرد على الشبهات العقدية والفلسفية المثارة حول النصوص.

- محاولة التوفيق بين النقل والعقل.

- نماذج مؤثرة:

- الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسيره "مفاتيح الغيب" (التفسير الكبير).

- الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في تفسيره "الكشاف"، وإن كان يجمع بين اللغة والكلام.

ثالثاً: دور الأصوليين (مدرسة الاستنباط الفقهي)

قدّم الأصوليون (علماء أصول الفقه) إسهامات منهجية بالغة الأهمية من خلال:

- الركيزة: تطبيق قواعد أصول الفقه في استنباط الأحكام من الآيات.

- الهدف: ضمان الاستدلال الصحيح للاستنباط الأحكام الفقهية من النصوص.

- أبرز المساهمات:

- تحديد دلالات الأوامر والنواهي.

- فهم العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين.

- قواعد الترجيح عند تعارض الأدلة.

- نماذج مؤثرة:

- الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) في كتابه "الرسالة" الذي وضع فيه أساس الاستدلال من النصوص.

- الإمام أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) في كتابه "أحكام القرآن".

أدت هذه المدارس المتخصصة إلى:

١. إثراء المنهجية العلمية للتفسير بالرأي.

٢. تعدد الزوايا التي يُنظر منها إلى النص القرآني.

٣. ضبط عملية الاجتهاد بقواعد علمية رصينة.

ومع هذا التخصص، ظلت الحاجة قائمة إلى التكامل بين هذه المناهج، فالنص القرآني وحدة متكاملة لا تكفي في فهمها زاوية واحدة، بل تحتاج إلى الجمع بين المناهج المختلفة في إطار الضوابط الشرعية.

المبحث الرابع: الخطر المبكر – ظهور الرأي المذموم وموقف علماء أهل السنة

مع انتشار الإسلام واتساع رقعة الدولة، واختلاط الثقافات، وترجمة الفلسفات الأجنبية، بدأت تظهر اتجاهات تفسيرية منحرفة عن المنهج القويم، شكّلت خطراً مبكراً على فهم القرآن الكريم. وقد تصدى لها علماء أهل السنة والجماعة بالبيان والتفنيد.

أولاً: مظاهر الرأي المذموم المبكر:

١. تفسير القرآن بالهوى والمعتقد السابق:

- الوصف: حمل النص القرآني على معانٍ لا يحتملها ليناسب أهواءً عقدية أو فكرية مسبقة.

- المثال: تفسير بعض الفرق الكلامية لآيات الصفات بحيث تتفق مع مذاهبهم الفلسفية (كإنكار الصفات أو تأويلها تأويلاً مجازياً بعيداً).

٢. التفسير الباطني (الإسماعيلي وغيرهم):

o الوصف: ادعاء أن للنصوص القرآنية معاني "باطنة" خفية لا يعرفها إلا الخاصة، مع إلغاء المعنى الظاهر الصحيح.

o المثال: زعمهم أن الصلاة في قوله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} تعني معرفة الإمام، وأن الصوم يعني كتمان السر!

٣. التفسير الإشاري (المنحرف):

o الوصف: تفسير القرآن بإشارات وخواطر قلبية دون ضوابط علمية، مما يفتح الباب للادعاءات والتفاسير المنفلتة.

ثانياً: التحدي الذي واجه علماء أهل السنة:

واجه علماء أهل السنة هذا الخطر من خلال:

١. وضع الضوابط الصارمة: مثل اشتراط موافقة التفسير للغة العربية، وعدم مخالفة النقل الصحيح، ومراعاة السياق.

٢. التأكيد على منهج السلف: في فهم نصوص القرآن، خاصة في أبواب العقيدة.

٣. التصنيف في الرد على المبطلين: ككتب "الرد على الجهمية"، و"الرد على الباطنية".

٤. التحذير من التفسير بغير علم: كما في قول الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣].

الخلاصة:

كان ظهور هذه الاتجاهات المنحرفة اختباراً لأمة الإسلام، ساهم في:

- بلورة منهج أهل السنة وتحديد معالمه بوضوح.
- تطوير علم أصول التفسير ووضع قواعد صارمة لضمان سلامة الفهم.
- إثراء التراث الإسلامي بكتب الجرح والتعديل والردود العلمية.

وهذا يؤكد أن التفسير بالرأي المحمود لا بد أن يكون مقيداً بالضوابط الشرعية، محكماً بمنهج السلف، بعيداً عن الأهواء والبدع.

الفصل الثالث: ضوابط التفسير بالرأي المحمود (الاجتهاد المقيد)

يمثل التفسير بالرأي المحمود الجهد العقلي المنضبط الذي يبذله العالم المؤهل لفهم كلام الله تعالى. ولكي يكون هذا الاجتهاد مقبولاً وسليماً من الانحراف، لا بد له من ضوابط تحكمه وتوجهه. وهي بمثابة الجدران الواقية التي تحمي عملية التفسير من الميل الهوى أو الخطأ.

المبحث الأول: الضوابط الأساسية للتفسير بالرأي المحمود

١. الضابط العلمي: التمكن من أدوات التفسير

- اللغة العربية وعلومها: إتقان النحو، والصرف، والبلاغة، وعلم الدلالة، وفقه اللغة.
- التفسير بالمأثور: الإحاطة بما ورد من تفسير النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

- أصول الفقه: معرفة قواعد الاستدلال والاستنباط.
- العقيدة الصحيحة: فهم عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة.
- الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول: معرفة ما يترتب على ذلك من أحكام.

٢. الضابط المنهجي: الالتزام بمراحل الفهم

- بدءاً بالتفسير بالمأثور: فالرجوع إلى الأثر هو الأصل الأول.
- فهم السياق: سياق الآيات، والسياق التاريخي لأسباب النزول.
- ربط الآيات بعضها ببعض: تفسير القرآن بالقرآن.
- الاستعانة بالشعر الجاهلي وكلام العرب: لفهم دلالات الألفاظ.

٣. الضابط العقدي: عدم مخالفة الأصول المتفق عليها

- أن لا يؤدي التفسير إلى إنشاء معنى يخالف أصول العقيدة الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة.
- أن لا يناقض التفسير نصاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً قطعي الثبوت والدلالة.

٤. الضابط الأخلاقي: تجنب القطع بالمراد مع احتمال التأويل

- التواضع العلمي وعدم الجزم بالمعنى إذا كان للآية أكثر من احتمال.
- نسبة الرأي إلى نفسه وقول: "والله أعلم بالصواب".

٥. الضابط المقصدي: مراعاة مقاصد الشريعة

- أن يكون التفسير منسجماً مع المقاصد العامة للشريعة الإسلامية (جلب المصالح ودرء المفاسد).

الخاتمة:

هذه الضوابط بمثابة الخريطة التي يهتدي بها المفسر في رحلته لفهم كلام الله. وهي التي تحول الرأي من مجرد هوى إلى اجتهاد مقيد محمود، يسهم في إثراء فهم الأمة لكتاب ربها، ويحفظ قدسية النص من العبث.

المبحث الثاني: الضوابط النقلية للتفسير بالرأي المحمود

تمثل الضوابط النقلية الإطار المرجعي الثابت الذي يحفظ للتفسير بالرأي استقامته ويمنعه من الانحراف، فهي تربط الاجتهاد العقلي بالأصول المنقولة الموثوقة.

أولاً: وجوب الالتزام بالأصل (تقديم تفسير القرآن بالقرآن والسنة الصحيحة)

يعد هذا الضابط الأساس الأول والأهم في التفسير، حيث يمثل المنهجية النقلية الراسخة:

١. تفسير القرآن بالقرآن:

- المبدأ: أفضل طرق التفسير أن يفسر القرآن بعضه بعضاً، لكونه كلاً مترابطاً.
- التطبيق: البحث عن تفسير الآية في آية أخرى توضحها أو تخصصها أو تقيدها.

- مثال: تفسير {الذين هم يراءون} في سورة الماعون يتضح معناه من آية سورة البقرة: {الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس}.

٢. تفسير القرآن بالسنة الصحيحة:

- المبدأ: السنة هي البيان العملي للقرآن، وقد أوكل الله تعالى إلى النبي ﷺ مهمة التبيين: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}.
- التطبيق: تقديم ما صح من الأحاديث النبوية في تفسير الآيات.
- مثال: تفسير {ظلموا أنفسهم} في سورة الزمر بالشرك كما بينته الأحاديث الصحيحة.

ثانياً: عدم مخالفة الإجماع القطعي للصحابة والتابعين

يمثل هذا الضابط الحاجز الوقائي الذي يحمي من الانحراف في الفهم:

١. مكانة إجماع الصحابة:

- المبدأ: الصحابة هم الشاهدون على التنزيل، والعالمون بملابساته، والأعلم بلغة القرآن.
- التطبيق: إذا أجمع الصحابة على تفسير آية، لم يجز مخالفتهم.
- مثال: إجماعهم على أن "الذين استجابوا لربهم" في سورة الشورى نزلت في أبي بكر الصديق.

٢. إجماع التابعين:

- المبدأ: التابعون تلقوا العلم عن الصحابة، وهم خير القرون بعدهم.
- التطبيق: إذا أجمع التابعون على تفسير ولم يعرف لهم مخالف، فإنه يكون حجة قوية.

هذان الضابطان (الالتزام بالأصل، وعدم مخالفة الإجماع) يشكلان:

- المرجعية النقلية التي تضمن صلة التفسير بمصادره الأصلية.
- الضمانة التاريخية التي تربط التفسير بفهم خير القرون.
- المنهج الوقائي الذي يحول دون انحراف التفسير بالرأي.

وبهذين الضابطين يظل التفسير بالرأي محكوماً بالمنهج النقلي، مرتبطاً بسلسلة الإسناد العلمي، محافظاً على استمرارية فهم القرآن الكريم كما فهمه السلف الصالح.

المبحث الثالث: الضوابط اللغوية والبلاغية للتفسير بالرأي المحمود

تمثل اللغة العربية الوعاء الذي نزل به القرآن الكريم، وبالتالي فإن الفهم الصحيح للنص القرآني مرهون بالفهم الدقيق للغة وأساليبها. وهذه الضوابط تضمن أن يظل التفسير بالرأي محكوماً بالأصول اللغوية التي نزل بها القرآن.

أولاً: الالتزام بقواعد اللغة العربية (النحو والصرف والاشتقاق)

١. علم النحو:

- الدور: يضمن الفهم الصحيح للإعراب وما يترتب عليه من معانٍ.

- الأثر: تغيير الإعراب قد يغير المعنى تغييراً جوهرياً.
- مثال: قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

إذا قُرئ {يَخْشَى} مبنياً للمعلوم كان الله هو الفاعل (لا يصح).

والصواب أن {يَخْشَى} مبنياً للمجهول، والفاعل {الْعُلَمَاءُ}، أي: إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ.

٢. علم الصرف:

- الدور: يبحث في بنية الكلمة وأوزانها وما يدخل عليها من زيادات.
- الأثر: دلالات الأوزان والصيغ.
- مثال: الفرق بين "فعَّال" للمبالغة (كـ "غفَّار"، "ستَّار") و"فاعل" (كـ "غافر"، "ساتر").

٣. علم الاشتقاق:

- الدور: يبحث في أصول الكلمات وتطور دلالاتها.
- الأثر: الوصول للمعنى الجذري للكلمة.
- مثال: كلمة "الصلاة" في أصلها اللغوي تدل على الدعاء، ثم تخصصت للدلالة على العبادة المعلومة.

ثانياً: مراعاة الأساليب البلاغية للقرآن ومقاصد العرب

١. علم المعاني:

- الدور: دراسة تركيب الجملة وأثر ذلك في المعنى.

- مثال: تقديم ما حقه التأخير أو العكس، كقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] تقديم المعمول {إِيَّاكَ} يفيد الحصر والقصر.

٢. علم البيان:

- الدور: دراسة طرق التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة (كالحقيقة والمجاز، التشبيه، الكناية).

- مثال: قوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء: ٢٤]. فهنا كناية عن اللين والتواضع، وليس المقصود الجناح الحقيقي.

٣. علم البديع:

- الدور: دراسة المحسنات اللفظية والمعنوية.

- مثال: الطباق في قوله تعالى: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} [الكهف: ١٨].

ثالثاً: عدم الخروج باللفظ عن دلالاته اللغوية المعتبرة

- المبدأ: يجب أن يبقى التفسير ضمن الدلالات المعروفة للكلمة في لغة العرب، ولا يجوز تحميل اللفظ معنى لم تعرفه العرب.

- الضابط: الرجوع إلى معاجم اللغة وكلام العرب (الشعر الجاهلي، وخطبهم) لفهم الدلالة الأصلية للكلمة.

- مثال: تفسير "الظن" في القرآن بمعنى "اليقين" في بعض المواضع (كقوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ}) لأنه من دلالات الكلمة في لغة العرب، وليس مجرد "الشك".

هذه الضوابط اللغوية والبلاغية تجعل من التفسير بالرأي عملاً علمياً رصيناً، يحترم خصائص النص القرآني البلاغية واللغوية، ويمنع الانزلاق التأويلات البعيدة أو تحميل النص ما لا يحتمل. وهي تضمن أن يكون الاجتهاد العقلي موجهاً بالضوابط الموضوعية لا بالهوى الشخصي.

المبحث الرابع: الضوابط العقلية والأصولية للتفسير بالرأي المحمود

تمثل هذه الضوابط الإطار المنهجي الذي يحكم العملية الاجتهادية، لضمان سلامة الاستنباط وصحة النتائج، وجعل التفسير بالرأي علماً منتجاً يحترم النص ويخدم المقاصد.

أولاً: أن يكون الرأي مستنداً إلى دليل شرعي أو عقلي سليم

١. الدليل الشرعي:

- المقصود: أن يستند التفسير إلى أصل من أصول الشريعة (نص قرآني، حديث صحيح، إجماع، قياس صحيح).

- مثال: تفسير "الظلم" في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} بالشرك، مستنداً إلى الحديث الصحيح الذي فسر الظلم هنا بالشرك.

٢. الدليل العقلي السليم:

- المقصود: الاستعانة بالاستدلال المنطقي الذي لا يتعارض مع النقل الصحيح، ويخدم فهم النص.

- مثال: استدلال المفسرين على أن "الاستواء" في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} لا يمكن أن يكون بمعنى الاستيلاء أو الاستواء المعتاد للبشر، لأن العقل السليم يقتضي تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات.

ثانياً: مراعاة مقاصد الشريعة الكلية

١. المقصود: أن يكون التفسير منسجماً مع الحكمة العامة والغايات العليا التي جاءت الشريعة لتحقيقها.

٢. المقاصد الكلية: (حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، المال).

٣. التطبيق: أي تفسير يؤدي إلى الإضرار بأحد هذه المقاصد يكون تفسيراً باطلاً.

- مثال: أي تفسير لآيات الجهاد بأنها دعوة للإرهاب والعنف غير المقيد هو تفسير منحرف، لأنه يناقض مقصد حفظ النفس والدين، ويشوه صورة الإسلام.

ثالثاً: الاستعانة بعلوم الآلة (أصول الفقه، المنطق السليم)

١. أصول الفقه:

- الدور: يقدم القواعد التي تحكم عملية الاستنباط من النصوص.

- التطبيق: مثل:

قواعد فهم العموم والخصوص.

قواعد التعامل مع النسخ.

قواعد الترجيح بين الأدلة المتعارضة.

- مثال: تطبيق قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" في فهم بعض الآيات.

٢. المنطق السليم:

- الدور: يضمن سلامة الفكر من التناقض والخرق، ويساعد في بناء الاستدلال المتسق.

- التطبيق: تجنب المغالطات المنطقية (كالشخصنة، والتعميم المتسرع).

- مثال: القول بأن "كل من خالف رأيي في التفسير فهو جاهل" مغالطة منطقية (اللجوء إلى الشخصنة).

تمنح هذه الضوابط العقلية والأصولية التفسير بالرأي:

- المنهجية: فيتحول من رأي عشوائي إلى استنباط منهجي.
- الموضوعية: فيبتعد عن الذاتية والهوى.
- الانسجام: مع النص الشرعي والمقاصد الكلية.

وبذلك يصبح التفسير بالرأي المحمود جسراً آمناً لفهم القرآن الكريم، يحترم النص ويستفيد من طاقة العقل في إطار الضوابط الشرعية.

الفصل الرابع: التفسير بالرأي المذموم (الهوى والاجتهاد المطلق)

يمثل التفسير بالرأي المذموم الوجه المنحرف للاجتهاد، حيث ينفلت العقل من قيود الضوابط الشرعية، فيتحول التفسير من فهم للنص إلى تحميل للنص ما لا يحتمل من الأهواء والآراء الشخصية. وهذا الفصل يسلط الضوء على حقيقة هذا النوع من التفسير، وأقسامه، ومخاطره.

المبحث الأول: تعريف التفسير بالرأي المذموم وأقسامه

التعريف: هو التفسير القائم على الهوى والاجتهاد غير المضبوط، دون الاعتماد على الأدلة الشرعية أو القواعد العلمية المعتبرة، أو بتطويع النص ليوافق رأياً مسبقاً.

أقسامه الرئيسية:

١. التفسير بالهوى:

- وصفه: تفسير القرآن بناء على الأهواء الشخصية، أو الميول العقدية، أو الأهداف السياسية المسبقة.
- هدفه: تحريف الكلم عن مواضعه لتبرير سلوك، أو نشر بدعة.
- مثال: تفسير بعض الفرق آيات الصفات بما يوافق أهواءهم الفلسفية.

٢. التفسير بالرأي المجرد (دون علم):

- وصفه: الخوض في تفسير القرآن دون التسلح بأدوات التفسير الشرعية واللغوية.
- هدفه: قد يكون حسناً في النية (رغبة في الفهم) لكنه قاصر في الأداة.
- مثال: تفسير الشخص للقرآن بمجرد فهمه العام للغة دون الرجوع إلى علوم الآلة.

٣. التفسير الباطني (الإلحادي):

- وصفه: ادعاء أن للنص معاني باطنة خفية تتعارض مع معناه الظاهر المتبادر.
- هدفه: إبطال الشريعة وتحريف الدين.
- مثال: زعم الباطنية أن الصلاة معرفة الإمام، والصوم كتمان السر.

٤. التفسير الإشاري المنحرف:

- وصفه: تفسير القرآن بإشارات وخواطر قلبية لا تستند إلى ضوابط لغوية أو شرعية.
- هدفه: الادعاء بالكشف والمكاشفات.
- مثال: تفسير بعض الصوفية المنحرفين للآيات بتأويلات بعيدة لا تدل عليها اللغة.

التفسير بالرأي المذموم هو مرض خطير يصيب الأمة، لأنه:

- ☐ يشوه صورة القرآن ويحوله إلى أداة لأهواء الناس.
- ☐ يمزق وحدة الأمة باختلاف التفاسير المنحرفة.
- ☐ يغلق باب الاجتهاد الحقيقي بتحويله إلى فوضى تفسيرية.

ولذلك كان التحذير منه في الكتاب والسنة شديداً، قال تعالى: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

المبحث الثاني: تحذيرات السلف من التفسير بالرأي المذموم

كان علماء السلف يدركون خطورة القول على الله بغير علم، فكانت تحذيراتهم شديدة اللهجة، تنبئ عن فداحة هذا الذنب وعظم مسؤوليته. وفي استعراض أقوالهم ما يرسخ الضابط الأخلاقي والعلمي للمفسر.

أولاً: نصوص من القرآن الكريم:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]. فهذه الآية جمعت المحرمات، وكان ختامها القول على الله بغير علم.

ثانياً: أقوال الصحابة رضي الله عنهم:

١. أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

كان يقول: "أَيَّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي وَأَيَّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟".

(رواه ابن جرير الطبري).

الدلالة: شعور عظيم بثقل المسؤولية وخشية التقول على الله.

٢. عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قرأ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٣١]، فقال: "هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟" ثم قال: "لَئِنْ قُلْنَا فِيهِ بِرَأْيِنَا هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ، مَهْ".

الدلالة: التوقف عند عدم العلم، وذم التكلف في البحث عن معنى لا دليل عليه.

٣. علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

قال: "إِيَّاكُمْ وَالْقَوْلَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِكُمْ، فَإِنَّمَا يُعْلَمُ الْقُرْآنُ مِنْ خَبَرٍ".

(أي من نقل عن النبي ﷺ وأصحابه).

الدلالة: تحذير صريح من التفسير بالرأي المجرد دون اعتماد على النقل.

ثالثاً: أقوال التابعين وأئمة السلف:

١. مجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ):

قال: "لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ".

الدلالة: جعل التفسير بغير علم منافياً لكمال الإيمان.

٢. سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ):

قال: "إِنَّمَا يُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِأَثَرٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ بِإِجْمَاعٍ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ فَبِالرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ شَاكٌّ".

الدلالة: وضع الأولويات في التفسير (الأثر، ثم الإجماع، ثم الرأي مع التريث والشك فيه).

٣. الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ):

قال: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ، فَانْظُرُوا فِي رَأْيِي، فَكُلُّ مَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَخُذُوا بِهِ، وَكُلُّ مَا لَمْ يُوَافِقِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَاتْرُكُوهُ".

وكان يقول: "لَا أُفْتِي وَفِي الْكِتَابِ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ مَسْأَلَةٍ" (كناية عن عظمة القرآن وعجزه عن الإحاطة به).

الدلالة: التواضع العلمي وربط الرأي بالدليل.

٤. الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ):

قال: "مَنْ تَفَسَّرَ كِتَابَ اللَّهِ فَإِنَّمَا يُبَيِّنُ عَنْ مُرَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُرَادُ اللَّهِ لَا يُدْرَكُ بِالرَّأْيِ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالسُّنَنِ".

الدلالة: تأكيد أن المرجع هو السنة لمعرفة مراد الله، وليس الرأي المجرد.

تشكل هذه التحذيرات جداراً منيعاً يحمي قدسية النص القرآني. وهي تدل على:

- الورع العلمي الذي تمتع به السلف.
- إدراكهم لخطورة التفسير وأنه أمانة لا يجوز التهاون فيها.
- تأسيسهم لمنهج متزن يجمع بين النقل الصحيح والعقل المنضبط.

فالتفسير بالرأي المذموم هو تجاوز لهذه الضوابط، وخروج عن منهج السلف، يؤدي إلى الزيغ والضلال.

المبحث الثالث: أقسام التفسير بالرأي المذموم

أقسام التفسير بالرأي المذموم:

التفسير المذهبي المتعصب: تفسير النص لخدمة المذهب (كلامياً أو فقهياً) بغض النظر عن السياق (مثل بعض آراء المعتزلة أو الغلاة). التفسير الفلسفي أو الباطني: تحميل النص

دلالات لا تحتملها اللغة، وإلغاء الظاهر. التفسير الإلحادي أو الهوائي: تفسير النص بما يوافق الهوى الشخصي أو الآراء الفاسدة، وعدم الالتزام بأصول الدين.

ينقسم التفسير بالرأي المذموم إلى أقسام متعددة، تجمعها جميعاً صفة واحدة وهي تحميل النص القرآني ما لا يحتمله من المعاني، أو تفريغه من مضمونه الصحيح. وفيما يلي أبرز هذه الأقسام:

أولاً: التفسير المذهبي المتعصب

- الوصف: هو تفسير النص القرآني لخدمة مذهب عقدي أو فقهي مسبق، بغض النظر عن دلالات النص اللغوية والسياقية.
- الهدف: تحويل النص إلى تابع للمذهب بدلاً من أن يكون المذهب تابعاً للنص.
- الخصائص:
  - تطويع النص ليوافق أصول المذهب.
  - إهمال السياق والقرائن الدالة على المعنى.
  - التأويل البعيد للمخالف.
- نماذج تاريخية:
  - بعض آراء المعتزلة: كتأويلهم لآيات الصفات تأويلاً مجازياً ليناسب قاعدتهم العقلية في "تنزيه الله" بفهمهم.
  - بعض تفاسير الغلاة في الفرق: كتفسير الخوارج لآيات الوعيد بتكفير المسلمين.

ثانياً: التفسير الفلسفي أو الباطني

- الوصف: هو تحميل النص القرآني دلالات فلسفية أو عرفانية لا تحتملها اللغة، مع إلغاء المعنى الظاهر الصحيح أو التهوين من شأنه.
- الهدف: ادعاء الوصول إلى معانٍ باطنة خفية لا يعرفها إلا الخاصة.
- الخصائص:
  - إهدار المعنى الظاهر للنص.
  - الادعاء بوجود معانٍ رمزية خفية.
  - عدم التقيد بضوابط اللغة العربية.
- نماذج تاريخية:
  - التفسير الباطني للإسماعيلية: حيث يدّعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن الباطن هو الأصل.
  - بعض التفاسير الصوفية المنحرفة: التي تذهب في التأويلات البعيدة.

ثالثاً: التفسير الإلحادي أو الهوائي

- الوصف: هو تفسير النص القرآني بما يوافق الهوى الشخصي أو الآراء الفاسدة، مع عدم الالتزام بأصول الدين وقواعده.

- الهدف: تحريف القرآن ليوافق الأهواء الشخصية أو النزعات الإلحادية.
- الخصائص:
  - إنكار الحقائق الغيبية الثابتة في القرآن.
  - تفسير القرآن تفسيراً مادياً بحتاً.
  - عدم الالتزام بضوابط التفسير المعتبرة.
- نماذج معاصرة:
  - تفسير المعجزات تفسيراً مادياً (كادعاء أن عصا موسى مجرد ظاهرة طبيعية).
  - إنكار أحكام القرآن تحت شعار "تجديد الدين".

هذه الأقسام تمثل أخطر أنواع الانحراف في تفسير القرآن الكريم، لأنها:

- تشوه صورة القرآن في أذهان الناس.
- تمزق وحدة الأمة باختلاف التفاسير المنحرفة.
- تغلق باب الهداية الذي يمثله القرآن.

ولذلك كان لزاماً على المسلم أن يحذر من هذه الأنواع، ويلتزم بمنهج السلف في التفسير، القائم على التلقي والاستنباط المضبوط بضوابط الشرع واللغة.

الفصل الخامس: دراسة نقدية لأسباب الانحراف وعلاجه

يعد التشخيص الدقيق لأسباب الانحراف في التفسير بالرأي الخطوة الأولى لتصحيح المسار ووضع العلاج الناجع. وهذا الفصل يحلل الجذور العميقة لمشكلة التفسير بالرأي المذموم ويقدم الحلول العملية للوقاية والعلاج.

المبحث الأول: تشخيص أسباب الانحراف في التفسير بالرأي

١. الجهل بأصول العلم الشرعي واللغوي:

- الوصف: عدم إتقان علوم الآلة (لغة، أصول فقه، عقيدة) مع الجرأة على التفسير.
- المظهر: الخلط بين الدلالات اللغوية، وضعف القدرة على الاستنباط.

٢. التبعية الفكرية والثقافية:

- الوصف: محاولة تفسير القرآن وفق المناهج الغربية (تاريخ الأديان، النقد الكتابي) أو الفلسفات الوافدة.
- المظهر: نزعة "تحديث" الدين قسراً لتبرير الأيديولوجيات المستوردة.

٣. الانحياز المذهبي والفرقي:

- الوصف: جعل النص القرآني رهينة للمذهب (عقيدياً كان أو فقهياً).
- المظهر: تحميل النص ما لا يحتمل لتأييد آراء المذهب ولو خالف السياق.

٤. النزعة الفردية والرغبة في الشهرة:

- الوصف: السعي لطرح "تفسيرات جديدة" غريبة لجذب الانتباه.
- المظهر: الخروج بالتفاسير عن إجماع الأمة وتراثها الثري.

٥. ضعف الوازع الديني والورع العلمي:

- الوصف: عدم استشعار خطورة القول على الله بغير علم.
- المظهر: الاستهانة بمسؤولية التفسير والافتاء دون تأهيل.

المبحث الثاني: العلاج والوقاية من الانحراف في التفسير بالرأي

١. العلاج العلمي:

- بناء المنهجية الصحيحة: التدرج في طلب العلم الشرعي، وإتقان علوم الآلة قبل الخوض في التفسير.
- الربط بين المنقول والمعقول: تقديم التفسير بالمأثور كأصل، وجعل الاجتهاد بالرأي تابعاً له.

٢. العلاج التربوي والأخلاقي:

- تربية النشء على الورع: غرس خشية الله في القلوب، وتعظيم شأن القرآن.
- تعزيز منهج الاعتدال: نبذ التعصب المذهبي، وتقبل الرأي الآخر ضمن الضوابط.

٣. العلاج المؤسسي:

- توحيد المرجعيات العلمية: تشجيع المؤسسات العلمية الرصينة على نشر التفسير المعتدل.
- الرقابة على الإصدارات: مراجعة الكتب والمقالات التفسيرية من قبل المتخصصين.

٤. العلاج الإعلامي والمجتمعي:

- توعية الجمهور: بيان خطورة التفسير غير المؤصل عبر وسائل الإعلام.
- تشجيع علماء الأمة: دعم العلماء الراسخين وإبراز جهودهم.

الانحراف في التفسير بالرأي مرض خطير، لكنه قابل للعلاج من خلال:

- ☐ التأصيل العلمي الراسخ.
- ☐ التربية الإيمانية المتينة.
- ☐ العمل المؤسسي المنظم.

وبذلك نضمن أن يظل التفسير بالرأي جهداً مجدياً في خدمة كتاب الله، لا أداة لهدم ثوابت الدين.

الخلاصة والنتائج

بعد هذه الرحلة في عالم التفسير بالرأي، يمكننا إيجاز أهم الضوابط التي تضمن سلامته، وتجعله اجتهاداً محموداً مقبولاً في خدمة كتاب الله تعالى:

١. الضابط النقلي: الالتزام بتقديم التفسير بالمأثور (القرآن بالقرآن، والسنة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين) كأصل وأساس، وعدم مخالفة الإجماع القطعي الثابت.

٢. الضابط اللغوي: الالتزام بقواعد اللغة العربية وعلومها (نحو، صرف، بلاغة) لفهم الدلالات الصحيحة للألفاظ والتراكيب، وعدم الخروج باللفظ عن دلالاته المعتبرة في لغة العرب.

٣. الضابط العقدي: عدم مخالفة الأصول العقدية المتفق عليها في مذهب أهل السنة والجماعة، وعدم تأويل نصوص الصفات إلا بما يليق بالله تعالى دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

٤. الضابط المقصدي: مراعاة مقاصد الشريعة الكلية (حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال)، وضمان انسجام التفسير مع الحكمة العامة للشريعة والعدل والرحمة.

٥. الضابط المنهجي: الاستعانة بعلوم الآلة (أصول الفقه، وقواعد الترجيح) لضمان صحة عملية الاستنباط، وبناء التفسير على الدليل الشرعي أو العقلي السليم.

٦. الضابط الأخلاقي: التزام الورع والتواضع العلمي، وعدم القطع بالمراد إلا بدليل قاطع، واستخدام عبارات التمريض (كالظاهر، والله أعلم) عند الاحتمال.

٧. الضابط الواقعي: ربط النص بالواقع المعاصر لفهمه وتطبيقه، مع الحذر من تحميله ما لا يحتمل من المعاني المستجدة.

هذه الضوابط مجتمعة تشكل هيكلاً حامياً للتفسير بالرأي، يحوله من رأي شخصي مجرد إلى اجتهاد علمي منضبط، يسهم في تجديد فهم الأمة لكتاب ربها، ويحفظ قدسية النص من العبث، ويجعل التفسير بالرأي المحمود جسراً للفهم العميق لكتاب الله، ووسيلة لاستنباط لتحديات العصر، في إطار من الثبات على الأصول والمرونة في الفروع.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

التوصيات

في ختام هذا البحث، تبرز مجموعة من التوصيات التي نرى أنها كفيلة بتحقيق التفسير المتوازن والمنهجية الرصينة في فهم كتاب الله:

١. الدعوة إلى اعتماد المنهج التكاملي: الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود، بحيث يكون المأثور هو الأصل الضابط، والرأي هو التكميل المُوصل لفهم أعمق وأشمل.

٢. تأهيل المفسرين تأهيلاً شاملاً: العناية بتكوين المفسرين في جميع العلوم الشرعية واللغوية والبلاغية والعقلية، مع التركيز على فقه المقاصد وفهم الواقع، حتى يكون التفسير صحيحاً ومؤثراً.

٣. تشجيع الدراسات المقارنة: دراسة الأقوال التفسيرية المختلفة وموازنتها بالدليل، والترجيح بينها وفق ضوابط علمية موضوعية، بعيداً عن التعصب المذهبي أو التقليد الأعمى.

٤. العناية بالتفسير الموضوعي: الاهتمام بدراسة القضايا القرآنية دراسة موضوعية شاملة، تربط الآيات بعضها ببعض، وتستنبط منها الرؤى والتشريعات التي تخدم واقع الأمة.

٥. توظيف الوسائل الحديثة: الاستفادة من التقنيات المعاصرة في خدمة التفسير، كقواعد البيانات القرآنية وبرامج الحاسب الآلي، مع الحفاظ على الأصول العلمية والضوابط الشرعية.

٦. تأسيس مراكز علمية متخصصة: إنشاء مراكز بحثية تعنى بمناهج التفسير وضوابطه، وتقوم بمراجعة الإصدارات التفسيرية، وتقديم التوصيات العلمية للمؤسسات التعليمية والإعلامية.

٧. نشر الوعي التفسيري بين عامة المسلمين: تبسيط صحيح التفسير ونشره بوسائل متنوعة، والتحذير من التفاسير المنحرفة والشاذة، وغرس ثقافة التثبت والاستفادة من أهل الاختصاص.

٨. ربط التفسير بقضايا الأمة: استنباط التوجيهات والحلول من القرآن الكريم لمشكلات الأمة المعاصرة في جميع المجالات، مع الحفاظ على الثوابت ومراعاة الخصوصيات.

٩. العناية بالتفسير البلاغي للقرآن: الاهتمام بدراسة الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وإبراز جوانب البلاغة والفصاحة التي تساعد في فهم المعاني والدلالات.

١٠. توثيق الصلة بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية: الاستفادة من الحقائق الثابتة في العلوم التجريبية في إطار التفسير العلمي المضبوط، دون إسراف أو تفريط.

فهذه التوصيات تمثل خارطة طريق للوصول إلى تفسير متوازن يجمع بين النقل الصحيح والعقل المنضبط، ويحقق المقاصد الشرعية من إنزال القرآن هدىً ونوراً وشفاءً للقلوب وهداية للبشرية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد،

فها هو ذا الكتاب يضع أوزاره، بعد رحلة علمية حاولت فيها أن أتلمس الطريق إلى فهم منهجية التفسير بالرأي، بضوابطه وأقسامه، محاولاً الجمع بين الأصالة والمعاصرة، والنقل والعقل.

إنني أرى أن أهم ما انتهى إليه هذا البحث هو:

أولاً: أن التفسير بالرأي ليس بدعة في الدين، بل هو ضرورة علمية وضرورة واقعية، لكنه يحتاج إلى ضوابط تحميه من الانحراف.

ثانياً: أن الخلاف بين العلماء في التفسير بالرأي إنما هو حول الرأي غير المضبوط، أما الرأي المحمود فهو مقبول عند جميع العلماء.

ثالثاً: أن ضوابط التفسير بالرأي تشمل الجوانب النقلية واللغوية والعقلية والأخلاقية، ولا يكتمل المنهج إلا بجميعها.

رابعاً: أن التفسير بالرأي المذموم يمثل خطراً على الفهم الصحيح للقرآن، ويؤدي إلى تمزق الأمة وتشويه صورتها.

خامساً: أن علاج الانحراف في التفسير يحتاج إلى تربية علمية وأخلاقية، مع عمل مؤسسي منظم.

الرؤية من الخلل والزلل:

أما عن الخلل والزلل، فأنا أستغفر الله تعالى من كل خطأٍ وقعت فيه، أو تقصيرٍ ظهر في هذا العمل. فالكمال لله وحده، والنقص من سمات البشر. وإني أبرأ إلى الله من العصمة، وأسأله أن يتجاوز عن الهفوات، ويغفر الزلات.

وإني أوصي القارئ الكريم أن:

- ينظر في هذا الكتاب بعين الناقد البصير، لا بعين القابل المسلّم.
- يصحح ما يراه من أخطاء، ويضيف ما يراه من فوائد.
- يذكرني بدعوة صالحة في ظهر الغيب.

ختاماً:

هذا جهد المقل، وعمل المُجِدّ، أقدمه بين يدي الله تعالى ثم بين يدي علماء الأمة وطلاب العلم، راجياً أن يكون لبنة في صرح خدمة كتاب الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

فضيلة الشيخ: حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين